## الصراع بين الشورى والديمقراطية

كنا نعلّم الطلبة في الجامعة أن كل مقارنة بين موضوعين مثلاً، فهي يجب أن تبحث في أوجه الاتفاق والاختلاف، وإلا فالمقارنة ناقصة وغير مقبولة..

الذين يقارنون بين الشورى والديمقراطية بعضهم لا ينظر إلا إلى الاختلاف، بينما البعض لا ينظر إلا إلى عناصر الاتفاق..

فمن يرفض الديمقراطية يشير لكونها تمنح مجالس النواب حق تشريع غير مقيد، ومن يقبلها يشير إلى توافقها مع الشورى في الآليات خصوصًا.

د. أحمد أوغلو - وزير الخارجية التركي - والمهتم ببحث الإستراتيجية يبحث في العلاقة بين الشورى والديمقراطية والعلاقة بينهما، فيقول[1]: يمكن تحليل الفرق الأساسي بين تطور الشرعية في النظرية (السياسية الإسلامية) والغربية من خلال (ثلاثة محاور):

١- محور معرفي.

٢- محور إرشادي/ وصفي.

٣- محور إجرائي/ هيكلي.

---

(١) الفلسفة السياسية، ترجمة د. إبراهيم بيومي، ص (٣٧) طبعة ٢٠٠٦م.

والأصل في هذه (الفروق) هو البعد (القيمي المعرفي) الذي يرتبط مباشرة بالتقييمات الوجودية/ الكونية.

إن أعلى مصدر معرفي (لشرعية السلطة السياسية) هو السؤال الرئيس المتصل (بالشرعية السياسية) إذ ليس من الممكن فهم مصدر وجوهر هذه الشرعية، إلا بالرجوع لمصدرها المعرفي أي (الصراع الأساسي) بين مبدأ الشورى في الإسلام ودور البرلمان في (التراث السياسي الغربي) كإجراء لتحقيق شرعية السلطة السياسية، فالتشابه الوظيفي بين (الوسيلتين) خادع إلى درجة كبيرة، وسطحي لدرجة أكبر، هذا إذا استثنينا الأبعاد الفلسفية والمعرفية للمشكلة، فقد فسرت النظريات السياسية الإسلامية (مبدأ الشورى) بالرجوع إلى (التكامل الوجودي الكوزمولوجي «الكوني»)، وفسرت نتائجه المعرفية على عكس (اللامبالاة الوجودية الغربية) حيال هذا الموضوع، ذلك هو السبب الرئيس لعدم قدرة الفلسفة (الديمقراطية الغربية) على التكيف مع المجتمعات الإسلامية، على الرغم من (التشابه البنيوي)... فالمسلمون (لا يرفضون الديمقراطية) بمعناها الذي يقتصر على (البنية السياسية) التي تهدف لإيجاد مشاركة سياسية، لكنهم يرفضون (اللامبالاة الوجودية) في الفلسفة الديمقراطية، ويمثل المصدر (المعرفي في علاقته بالإطار السياسي/ القيمي، محور هذه القضايا المتصارعة).

وفي الحقيقة فإن (المصدر المتصارع) هو الاختلاف بين معنى (الحقيقة) في نظرية المعرفة الغربية المعتمدة على (تجزئة الحقيقة) مما يؤدي إلى (علمنة المعرفة) من ناحية، ومعناها طبقًا (لوحدة الحقيقة) في نظرية المعرفة الإسلامية، التي ترجع وتعود إلى (الحق العليم) سبحانه، كما ورد ذلك في القرآن الكريم... ا.هـ.

هناك إذن نقاط التقاء واختلاف - نقاط الاتفاق يصفها د. أوغلو بأنها بكونها (خادعة وسطحية)، أما نقاط الاختلاف فيردها للفلسفة التي ترتكز عليها الشورى، وكذلك الديمقراطية، ونوع الحقيقة ومصدرها ومفهومها، فالشورى تعتمد حقيقة غير مجزأة ولا مجتزأة. أما الديمقراطية فتعتمد (تجزئة الحقيقة)، وهذا يدفع بها إلى (علمنة المعرفة)، وكذلك اللامبالاة الوجودية، ويحصرها (التصارع) في هذا الجزء دون سواه، ويحرص على بيان أن المسلمين لا يرفضون الديمقراطية كنظام، ولكن المرفوض الفلسفة الكامنة وراء النظام، ومثل هذا ما أشار إليه أكثر من مفكر بأن الإسلام لا يعادي العلم الغربي، ولكن يرفض الفلسفة التي يقوم عليها. فالعلم (وصفي) يجيب عن (كيف)، وأما الدين فيجيب عن (لماذا).

وهنا أستذكر ما قاله رئيس وزراء بريطانيا (ونتسون تشرشل)، وهو يتحدث عن الديمقراطية بصراحة تامة، فيقول:

إنهـا أسوأ نظام لكننا نستمر في التعامل وفقها حتى نجد نظامًا أفضل منها...

في الحيـاة من الصعـب أن نجد خيرًا مطلقًـا، وكذلك أن نجـد شرًّا مطلقًـا، لكن الموجود خليط من هـذا وذاك، والحكم للأغلب منهما.

والسؤال الأخير: هل يمكن اعتماد النظام الديمقراطي مع النص على أنه لا يحق للمجالس النيابية سن تشريع يتعارض مع ثوابت الشريعة الإسلامية وأصولها وكلياتها؟

## الوردي: الصراع والتعاون

د. علـي الوردي - رجل علم الاجتماع يتحدث عن (التنازع البشري)، فيسجل أمورًا منها[1]:

١- إن التعاون والتنازع صفتان متلازمتان في البشر لا تنفصلان.

٢- إن الإنسـان ليس حيوانًا محضًـا ولا إنسانًـا محضًا، بل هو (حيوان وإنسان معًا).

٣- يتعاون بدافع كونه إنسانًا، ويميل للتنازع بدافع الحيوانية.

٤- يضـرب مثلًا بالطفل يألف مثيله، ويتعاون معه؛ لكنه لا يلبث أن يشتبك معه في تنازع وتصارع.

(١) لمحـات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الطبعـة الأصلية، ٣٤٩/٢، عام ٢٠٠٧م.

٥- يعلل سبب التعاون بحاجة الإنسان؛ لأنه يعيش في مجتمع.

٦- لكنه متى وجد من ينافسه وينازعه على مصلحة مادية أو معنوية انتفض وظهرت نزعته الحيوانية.

٧- مزية الحيوان أنه يجري على فطرته دون رياء أو تبرير.

٨- والإنسان يحب أن يفعل كالحيوان؛ لكن هناك قواعد وتقاليد وأعراف تمنعه من ذلك.

٩- إذا اضطر لمصارعة خصمه فإنه يبحث عن حجج ومعاذير ليبرر ما يفعله؛ لذا يصف عدوه بكل الصفات القبيحة، ويسلبه كل محاسنه.

١٠- العقل البشري يبتكر الحيل والوسائل والأسلحة كي يفتك بمن يصارعه ويتفوق عليه.

١١- الحيوان حاجاته قليلة؛ لكن الإنسان له حاجات متجددة وتطلعات غير محدودة مادية وغير مادية.

١٢- مما يزيد في حدة تنازع وتصارع البشر ما يتصف به الإنسان من (تحيز) عقلي وتفلت ذاتي، فهو يعتقد بأنه الأفضل أو الأذكى أو الأكفأ... إلخ.

١٣- يستشهد الوردي بما هو حاصل في قاعات المحاكم، فالكل يعتقد أن الحق معه.

١٤- هذا السلوك الفردي يوجد في الجماعات والقبائل والشعوب والأمم، فكل يعتقد أن الحق معه، والباطل مع خصمه.

بعد ذلك يطـرح تساؤلًا: هل يمكن أن يأتي يوم على البشر يزول التنازع عنهم ويسود الوئام والتآخي؟

ويرد بوضـوح: الواقع أننا اختبرنا الإنسـان طيلة الدهور، فلم نره تبدل في طبعه.

وحـين ننظـر لأعظـم الـدول وأرقاهـا حضـارة ومعرفة، نجدها تتنازع على منوال تنـازع (القبائل البدائية)، ويستشهد بخوض حربين عالميتين - في قرن واحـد - وقد كانت القسوة لا تقل فظاعة عـن (قسوة الهمج)، وهذه الحروب ستظل مستمرة لحين ظهور (قوة عالمية قاهرة) تحكم في هذه المنازعات.

دول اليوم في نفس المرحلـة التي عاشها الأفراد قبل ظهور الحكومات، فكل دولة تريد أن تأخذ حقها (بحد السيف).

من المفارقات فالعقل البشري يبتكر أعجب الأسلحة والأشد فتكًا؛ لكنه لا يزال في صراعه يفكر كما كان عليه الأسلاف، وهنا يكمن (الخطر الأكبر) فطبيعة الصراع والتنازع - في الإنسان - لم تتغير، إنما الأسلحة التي يستعملها هي التي تتغير.

ويختم بحثـه[1]: لا يجوز أن نثق بالإنسـان حين نراه ينادي بالعـدل أو الحق أو غيرهـا من مثل عليا، فهو ينـادي بتلك المثل لتكون نافعة له، وهو ينساها حين تكون نافعة لخصمه... ا.هـ.

(١) المرجع السابق ص (٣٥١).

أذكر حوارًا مع مستشرق قيل له: عندما فتح العرب القدس لم يقتل أحد ولا صودر مال، ومنح الكل حق ترك القدس وأخذهم أموالهم وشروط أخرى كلها في صالح من كان في القدس من أهلها وغيرهم.

فلما استردها الصليبيون غرقت المدينة في الدم، فكان جوابه: العرب كان لديهم شريعة واضحة يلتزمون بها، أما نحن فلا شريعة لدينا، والأديان كل الأديان وخصوصًا السماوية حاولت رسم صورة جيدة للتعامل مع العدو، لكن البشر بسبب من تشنجهم وعنصريتهم جعلوا من الدين وسيلة للصراع، وقد شهدت أوروبا صراعات دينية ومحاكم (تفتيش) هي الأسوأ في العالم، وقد سجل شاعر مفارقة كبيرة، فقال:

**كلما أنبت الزمان قناة ركب الناس في القناة سنانا**

كان الناس يختلفون حول الدين وتفسير نصوصه، فلما ابتعد الناس عن الدين راحوا يتقاتلون ويتصارعون لأسباب جديدة، يقول شاعر:

**أحبولة الدين رثت من تقادمها فاستبدلوها الورى أحبولة الوطن**

**والخلاصة:** البشر يتصارعون بدافع من غرائزهم (الحيوانية)، لكنهم يستعملون عقولهم في (فلسفة وتبرير

الصـراع)، وهنا تصنع الأكاذيب، وتلفق التهم وتفبرك، وتعطى لهـا العناوين البراقـة، وهنا نستذكـر ذلك الحـوار بين الذئب والحمـل، حين قال له: لقد أزعجتني حين عكرت عليَّ الماء الذي أشـرب قبل نصف عام، فرد الحمل - مـن دول العالم الثالث - عفـوًا سيـدي الذئب، أنا في هذا التاريـخ كنت في بطن أمي، ولم أولد بعد، فكيف أعكر عليك الماء؟

وأختم ما تقدم بوصية للخليفة الراشد الأول لقائد عسكري لها دلالتها.

## لا تقتلوا، لا تخونوا

جاء في كتاب جمهرة خطب العرب: من وصية لأبي بكر رضي الله عنه لقائـده أسامة بـن زيد[1]: يا أيهـا الناس لا تخونـوا، ولا تغلوا، ولا تغـدروا، ولا تمثلـوا، ولا تقتلوا طفلًا ولا شيخًا كبـيرًا ولا امرأة، ولا تعقـروا نخلًا، ولا تحرقـوه، ولا تقطعوا شجرة مثمـرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة... ا.هـ.

ومـع ذلك فإن الغرب الذي استعمر كل القارات وعاث فيها فسـادًا ونهبًـا، وأشعل الحـروب وما يزال، فهـو يصف الإسلام بأبشع النعوت والصفات، وليت ذات سوار لطمتني..

(١) جمهرة خطب العرب/ تحقيق أحمد زكي ص (٤٩).

## صراع البداوة والحضارة

د. علي الوردي يطرح فكرة (صراع البداوة والحضارة) لتفسير بعض ما وقع في العراق منذ سقوط الدولة العباسية عام ٦٥٦هـ.

يقول الوردي[١]: يتضح صراع البداوة والحضارة بأجلى مظاهره في العراق لأسباب لا مجال لذكرها هنا، إن العراق هو بلد (هابيل وقابيل) على حد تعبير المؤرخ توينبي، وهذا هو الذي جعل المجتمع العراقي عرضة (لمد البداوة) على توالي العصور، يأتي المد البدوي تارة وينحسر تارة أخرى، حسب اختلاف وتفاوت الظروف.

يمكن القول: إن أطول مدة (سيطر) فيها المد البدوي على العراق هي المدة الأخيرة التي بدأت منذ سقوط (الدولة العباسية) أو قبل ذلك بقليل، ثم استمرت ما ينوف على (ستة قرون)، لقد كانت مدة (شاذة)، اشتد فيها المد البدوي إلى الدرجة القصوى، إذ انهارت (سلطة الدولة)، واختل نظام الأمن، وتتابعت الكوارث من فيضانات وأوبئة ومجاعات، مما جعل الحضارة تذوي في العراق، وتستفحل قيم البداوة فيه.

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ٣١٩/١.

ويكفي لفهم طبيعة المدة أن نذكر أن ثلاثة أرباع السكان كانوا يخضعون للتنظيم العشائري، وتسيطر عليهم قيم (العصبية والغزو والثأر... وما أشبه)..

أما الربع الباقي - من سكان العراق - الذين يمثلون أهل المدن، فهم وإن كانوا يختلفون عن العشائر في بعض الأمور كالمساكن والملابس وطرق كسب العيش، غير أنهم في أعماقهم لم يكونوا يختلفون كثيرًا عن البدو، وطالما تعصب ابن المدينة لمحلته مثل تعصب البدوي لعشيرته.

ولم يبق من قيم (الحضارة القديمة) في هذه المدة سوى بعض الحرف والصناعات البسيطة، لكننا حين ندرس شخصية صاحب الحرفة نجده أقرب لقيم البداوة منه إلى الحضارة، فهو يود أن يغلب (الزبون) بدلًا من أن يواريه ويرضيه - على طريقة أهل الحضارة - ولا يكاد يغفل عنه الزبون حتى يسرع إلى غشه.

إن نزعة (الغزو) أقوى عنده من نزعة العمل والإنتاج، فهو يهتم بالربح العاجل الذي يأتيه عن طريق (الغلبة) أكثر من اهتمامه بالربح الآجل الذي يأتيه من حسن السمعة؛ لذا تكثر المشاجرات بين البائع والمشتري، أو بين العامل وصاحب العمل، أو بين الحر في والعميل، وهذه كثيرة الشيوع في المدن العراقية، والويل لمن يريد أن يبني دارًا فهو سيحاط بعدد كبير من الناس، وكل واحد

منهـم يحاول انتهـاز الفرصة لغبنـه أو التدليس عليـه، فإن غشك أحدهـم في شيء فهو لا يستحي من ذلك، وربما ابتسم لك ابتسامة (صفراء)، يشير بها إلى أنه قد غلبك وضحك عليك... ا.هـ.

ولعل من هذا الصراع ما نجده في العالم الثالث بين (الدولة والعشائر) فمتى قويت الدولة وسيطرت، فهي تحاول القضاء على العشائر، وهـذا يتضح في أفريقيا وآسيا، فإن كانت العشائر قوية كمـا في الصومال وأفغانستان ودول جنوب الصحراء في أفريقيا، فإن سلطة الدولة تكون ضعيفة جدًّا، ولا تحاول تحدي العشائر.

## الغرب وصراع الأضداد

الثقافـة الغربيـة منذ عصـور اليونان وحتـى اليوم عرفت شيئًـا اسمـه (صـراع الأضـداد)، وحسـب الطـرح (الهيغلي) صـراع المتناقضات الساحة الغربية - الفكرية خصوصًا - تؤمن بثنائيـات متضـادة متصارعة، فهناك المثاليـة والواقعية، المادة والروح، العقل والوحي، الدين والدولة، الفردانية والسلطوية...

أمـا الثقافة الإسلامية فقد غلب عليهـا نزوع قوي ومستمر نحـو الوسطيـة والتوازن، فقـد جعل القـرآن الكـريم الوسطية والاعتدال (سمة) ربانية بارزة للأمة المسلمة[1]... ا.هـ.

(١) نحو نظام معرفي إسلامي/ د. عرفان عبدالحميد ص (١٦٤) طبعة أولى.